

# القسم الثاني



# الخلفيات الأيديولوجية للنظريات التربوية

## التربية أوضح أنواع الصيغ الأيديولوجية

لعل هذا العنوان أضخم مما تريد أن تتناوله هذه المحاضرة (1) ، ولعله أيضا يحمل في طياته التباسا أو على الأقل عدم دقة . فالنظريات التربوية ، الحديثة منها والقديمة هي نفسها أيديولوجيا ، بل لعلها أكثر أنواع الأيديولوجيات وضوحا من حيث ارتباطها بالواقع وعكسها لهذا الواقع . ونحن نقصد هنا الواقع الاجتماعي ، بكل ما يتضمنه من تطلعات ، سواء منها تلك التي تتجه نحو الماضي أو تلك التي تولى وجهها نحو المستقبل .

ومع ذلك فأنا أقبل هذا العنوان بكل علته لغرض نفسي : لاثارة الانتباه الى أن جميع النظريات التربوية ، حتى تلك التي تقدم نفسها ملفوفة في غلاف يحمل طابع العلم ، هي نظريات تستقي أسسها وأهدافها ، ولربما حتى وسائلها ، من أيديولوجية معينة ، وبالتالي فهي تعكس واقعا اجتماعيا معينا ، وضعا طبقيًا خاصا .

## التربية فلسفة وعلم وفن

بعد هذا التوضيح ، ننتقل توا الى عالم التربية ، هذا العالم الواسع الرحب ، الزاخر بالنظريات والافكار المتباينة ، وأحيانا المتناقضة ، لنحاول بيان أسباب هذا التباين وعلّة هذا التناقض . فما هي التربية ، من وجهة نظر أصحاب النظريات التربوية أولا :

(1) ألقيت هذه المحاضرة بنادى النقابة الوطنية للتعليم بالدار البيضاء ونشرت بجريدة « المحرر » بتاريخ 23-2-1975 .

يقول دركهميم : « التربية هي الفعل الذي تمارسه الاجيال الراشدة علي الاجيال التي لم تنضج بعد للحياة الاجتماعية » . واذا شئنا تعريفا اكثر تفصيلا وادق تعبيراً قلنا مع هوبير : « التربية هي مجموع الفاعليات والتاثيرات التي يمارسها ، بشكل ارادى مقصود ، كائن انساني على كائن انساني آخر ، وفي الغالب راشد على صغير ، والتي توجه نحو غاية ترمي الي جعل الكائن الصغير يتوفر على مختلف أنواع الاستعدادات التي تناسب الغايات التي يرمى منه بلوغها عند نضجه » .

واذا نحن حللنا هذا التعريف ، وهو تعريف جامع ولكنه صوري الي حد كبير ، فاننا سنجدده يتضمن ثلاثة عناصر اساسية :

1 - التربية ، بوصفها عملاً مقصوداً ، تستلزم وجود غاية ، فهي ترمي اذن الي تحقيق هدف معين . وتختص فلسفة التربية ، في الغالب ، بتحديد الهدف من التربية . ومن هنا كانت التربية مرتبطة اشد الارتباط بالنظرة الفلسفية السائدة في هذا العصر او ذلك .

2 - هذه الغاية التي تسمى اليها التربية تتطلب ، من اجل تحقيقها ، اللجوء الي وسائل وطرق معينة . فالتربية في الحقيقة هي خلاصة فلسفة الكبار مطبقة على الصغار . وتختص البيداغوجيا عادة بالبحث في طرق التطبيق ووسائله : وهي طرق ووسائل لا بد ان تستند بشكل او باخر الي تلك الفلسفة نفسها . ومن هنا كان من التربية ، ومن هنا كان التطبيق التربوي ، يحمل هو الآخر طابعا ايديولوجيا ، طابع الفلسفة السائدة .

3 - موضوع التربية هو الطفل . ونجاح العمل التربوي ، كهدف ووسيلة معا ، في تحقيق اهداف التربية يتطلب المعرفة بالطفل . ويقدم لنا علم نفس الطفل هذه المعرفة المطلوبة ، وهي معرفة مشروطة بتقدم العلم ، بتقدم المعرفة على العموم .

التربية ، اذن ، غاية ووسيلة وتصور معين للطفل . وبعبارة اخرى : انها ، في آن واحد ، فلسفة وفن وعلم . الغاية والوسائل والمعرفة تختلف باختلاف المجتمعات ، وتتغير بتغير المجتمع الواحد . تختلف وتتغير بتغير واختلاف المستويات والاهتمامات والامكانيات .. الخ .

\* \* \*

## التربية بالتحريف عملية اجتماعية

من كل ما تقدم نستخلص الحقيقة البديهية التالية : وهي ان التربية، بالتحريف ، عملية اجتماعية . ولقد كان يكفي للوصول الى هذه الحقيقة البديهية الانطلاق من ذلك التحريف المشهور الذى يعرف الانسان بكونه حيوانا اجتماعيا . ولكننا آثارنا الطريق الذى سلكتاه لنمطى لهذه العملية الاجتماعية ابعادها الفلسفية — العلمية — التطبيقية ، من اول وهلة ، ثم لتنادى بسهولة الى الحقيقة الثابتة التالية : وهي ان التربية، بوصفها عملية اجتماعية ، تتلون من حيث اهدافها ووسائلها ومخرجاتها للطفل ، بلون مجتمعها ، بلون عصرها . فلا النظريات التربوية ، ولا الطرق البيداغوجية ، ولا معارف المربين بالطفل ، لا شيء من ذلك يعلو على المجتمع ، على تناقضاته وصراعاته ، بل كل ذلك مرتبط بهذه التناقضات والصراعات شديد الارتباط .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فانه لما كانت التربية عملية اجتماعية، فهي قديمة قدم الحياة الاجتماعية نفسها . ووظيفتها الاولى والاساسية هي التنشئة الاجتماعية ، هي التهيئة Socialisation ، اى تلك العملية التي بواسطتها تنقل جماعة ما تراثها الثقافى — الحضارى الى اعضائها كما تضمن استمرار وجودها المادى والروحى . يهدون التربية ، بدون عملية النقل هذه ، لن تكون هناك لا ثقافة ولا تقنية ولا حضارة . . بل سيبقى الفرد ، فى هذه الحالة ، سجيناً لقدراته الخاصة وتجربته الخاصة . سيبقى الانسان يكرر نفسه ، يفعل هذا ما فعله الآخرون ، تماما مثل الحيوان . . بل ان الحيوان سيكون أرقى منه ، لانه يزيد بخرائز واستعدادات أكثر نضجا مما هي عند الانسان .

## التربية « النظامية » والانقسام الطبقي

نعم ، لم تكن التربية نظامية فى جميع العصور ، لم تكن تمارس بشكل ارادى منظم فى جميع انواع المجتمعات التى عرفها التاريخ . ولكن مع ذلك يمكننا ان نقرر ان العيش وسط جماعة هو فى ذاته تربية . ففي هذه الجماعة يكتسب الفرد جملة من الخبرات ، ويتلقى ميراث اجداده ، ميراثهم المادى والروحى .

— في الجماعات المسماة بدائية ، المشائر الطوطمية ، يتلقى الطفل بكيفية مباشرة من الجماعة كلها ، من نظام عيشها وطريقة حياتها ، جملة من العادات والتقاليد والاعراف والطقوس تشكل في مجموعها ثقافة هذا المشير أو ذاك . ان ما يجب ان نقتبه اليه هنا ، ليس عملية التلقى هذه ، فهي عامة بالنسبة لجميع المجتمعات كما اثرنا الى ذلك قبل . ولكن المهم هو الانتباه الى ان التربية ، في هذه الجماعات البدائية ، لم تكن من اختصاص افراد معينين ، (معلمين ومربين) ، ولا كانت موجهة الى اطفال فئة اجتماعية ما بشكل يختلف عما يتلقاه اطفال الفئات الاخرى . . كانت التربية بدائية نظرية « طبيعية » ، كانت واحدة بالنسبة للجميع ، واحدة في اهدافها ، في مضمونها في وسائلها . . كانت عامة تقوم على مساواة تعكس تلك المساواة التي تسود الحياة داخل الجماعة أو العشيرة .

— وفي المجتمع القبلي حيث يعيش الفرد كثرة وسط قبيلته ، يتلقى الصغار تربية عفوية اشبه ما تكون بالتربية في الجماعات البدائية ، ولكن مع هذا الفارق الاساسي ، وهو ان تربية اطفال الارستقراطية القبلية تختلف عن تربية أبناء الامراء الاخرين . فنوع التربية ووسائلها ومضمونها يختلف باختلاف درجات السلم داخل المجتمع القبلي . وسيعظم هذا الاختلاف مع المجتمعات المتطورة كمجتمعات المدن اليونانية مثلا .

وعلى العموم ، فان التربية بمعناها الفني — الاصطلاحي ، أصبحت ، مع تقسيم العمل ، من احتكار الفئات المسيرة : مع نمو التمايز الاجتماعي ، مع قيام الطبقات ، مع تقسيم العمل الى يدوي وفكري ، أصبحت التربية تختلف باختلاف الطبقات ، وأصبح هدفها ، وأصبحت اخلاقيتها تتلخص في تلك العبارة المشهورة : « انزال الفلاس منازلهم » . ان التربية في هذه الحالة ستختلف مضمونها وشكلها ، هدفها وطريقة ، باختلاف « منازل » الافراد والجماعات في السلم الاجتماعي .

**الطابع المحافظ للتربية وتخليف المدرسة عن الحاضر والمستقبل**

والنتيجة هي ان الهدف من التربية سيكون ، لا تحقيق التقدم الاجتماعي للمجتمع ككل ، بل الحفاظ على الوضع القائم ، واعطاء

كل فرد نوعا من التربية يتناسب مع مستوى الفئة التي ينتمى إليها ، مستواها المادى والفكرى . وهنا ستتخذ التربية شكلا هربيا ، شكلا طبقيا . الهدف الاساسى من التربية فى هذه الحالة هو الحفاظ على الوضع القائم ، ومن ثمة كانت التربية ذات طابع محافظ . كان ذلك عند اليهود القدماء ، وفى الصين القديمة ، وفى المدن اليونانية ، كما حافظت على نفس الطابع خلال القرون الوسطى والعصر الحديث .

ان هذا الطابع المحافظ للتربية ، وهو طابع يعكس انقسام المجتمع الى طبقات ، هو ما جعل التربية تقف دوما امام التغيير والتجديد . فكل جديد يعتبر بدمية ، او هرطقة ، وبالتالي يحارب . . ان الفضيلة فى هذه الحالة هى فضيلة السلف ، والتعلم هو علم السلف ، وينبع الحلول للمشاكل القائمة هو دوما السلف وحياة السلف . وفى جميع الحالات كان السلف ، وكان الماضى برعته ، يستغل من أجل تكريس الوضع الطبقي السائد . فى الهند مثلا كان البراهمة يمينون لكل فرد منذ ميلاده نوع التعليم الذى يجب أن يتلقاه . وحدود هذا العلم . والبراهمة وحدهم ، اى الرؤساء ، وهم على قمة الهرم فى المجتمع الهندى القديم ، هم وحدهم الذين كان لهم الحق فى الفراغ ، ومواصلة التعلم والتفلسف . وفى الصين ، وفى المجتمع اليونانى والمجتمع الروماني ، وفى العصور الوسطى أيضا ، كان الهدف من التربية هو الحفاظ على التدرج الاجتماعى . هو وضع كل فرد فى موضعه الذى يحدده له نسبه وحسبه وطبقته . وفى المجتمعات المعاصرة أيضا نجد نفس الظاهرة . فعلى الرغم من ان القوانين تنص على حق الجميع فى التربية والتعليم ، الا ان التمتع بهذا الحق ، والنصيب الذى يناله الفرد من التربية والتعليم ، وشكل هذه التربية والتعليم ، كل ذلك يختلف باختلاف الطبقات ، باختلاف المستوى المادى والفكرى للفئات الاجتماعية .

واذن ، فلقد لعبت التربية دوما دورا محافظا .

هذا ما يؤكد تاريخ التربية كنظم ومؤسست ، وكاهداف ووسائل ، هذا ما يؤكد الواقع الاجتماعى والتاريخى .

وإذا انتقلنا الآن الى مستوى النظريات التربوية ، فإنا سنتوصل بعد التحليل ، الذي يربط الفكر بالواقع ، الى نفس النتيجة ، ولكن مع بعض الاختلاف . ذلك لان الفكر لا يعكس الواقع كما تعكس المرآة الاشياء . ان الفكر ليس منفصلا فقط ، بل هو فاعل أيضا . انه يسبق الواقع في نفس الوقت الذي يعكسه ، انه يتبين فيه عناصر التقدم فيعمل على عرقلتها أو تعجيل نهوها ، حسب المصالح والانتماءات الطبيعية .

ذلك هو المنطلق آرساسي في التحليل انطلي ، التحليل التاريخي . ولكن علينا ان نضيف حقيقة تاريخية اجتماعية اخرى تشكل جزء لا يتجزأ من هذا المنطلق نفسه . ذلك ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية تتطور دوما قبل النظم التربوية . ومن هنا ذلك القلق الذي يستشعره المتعلمون دوما حيث يلاحظون ان ما يتطلبونه ينتهي الى الماضي ، لا الى الحاضر والمستقبل ، الشيء الذي يعنى ان المدرسة تظل في معظم الاحوال متخلفة عن الحاضر المستقيل .

بعد التأكيد على هذه الحقيقة نعود فنلقى نظرة سريعة على النظريات التربوية خلال العصور التاريخية :

### تطور اهداف التربية عبر العصور

#### 1 - عند اليونان

— لقد لاحظنا قبل ان النظريات التربوية في عصر من العصور هي جزء من الفلسفة السائدة في ذلك العصر . ولما كانت الفلسفة بمعناها الاصطلاحي تبدأ مع اليونان فلنبدا من اشهر واعظم فلاسفة اليونان :

نظريات افلاطون في جمهوريته ، تهدف تحقيق العدالة . وهي تتناول التربية من هذه الزاوية . فلكي تتحقق العدالة لابد ، في رأى افلاطون ، ان يكون الحاكم فيلسوفا أو الفيلسوف حاكما ، لان الفيلسوف هو وحده الذي يستطيع ان يتلقى من « العالم العلوي » حقائق الاشياء .

واذلك للتربية يجب ان توجه الى تكوين حكام فلاسفة، او فلاسفة حكام،  
وهي لن تتمكن من انجاز هذه المهمة الا اذا تدرجت ، خلال خمسين عاما،  
من المحسوس الى المقبول ..

كان افلاطون يعبر عن راي الفخبة التي كان واحدا منها ، من  
مطامحها وتطلعاتها ، لا من مطامح الناس اجمعيين . كان لسان  
« المواطنين » لا لسان مجبوع الشعب . هو لا يتحدث عن تربية ابناء  
العمال والفلاحين لانهم عبيد ، ولانهم آلات ، مهمتها في فلسفة افلاطون،  
هي توفير الغذاء للفخبة الاجتماعية ، لان يستحقون لقب « مواطن » .  
وواضح هنا ان افلاطون اما كان يكرس امرا واقعا ، فالمجتمع اليوناني  
في عصره كان يقوم على هذا الشكل : المواطنين ووظيفتهم العمل الفكري :  
تسيير المجتمع ، المساهمة في المناقشات السياسية والفلسفية ، واحتلال  
مناصب الحكم . اما الياني ، اي العميد ، من عمال وفلاحين ، فكانوا  
عبارة عن ادوات منتجة ، ادوات تبايع وتشتري .. والتربية التي يطلقها  
هؤلاء هي ذلك النوع الذي يبني عليهم في وضعيتهم هذه ، وضعية العميد،  
او الالة البحرية المنتجة ..

ولم يكن الامر يخلف عند ارسطو : لقد كان الهدف من التربية  
عنده هو خلق السياسي الحاكم المثقف الصبور بالامور .. والتربية بهذا  
المعنى ، محصورة عنده ايضا ، في طبقة « المواطنين » الطبقة المستقلة  
الحاكمة .. اما الآخرون لهم عبيد .. يجب ان يتلقوا التربية التي تجعل  
منهم عبيدا « صالحين » .

## 2 - عند الرومان

- ونجد نفس الشيء عند الرومان ، فـ « المواطنين » هم وخدمهم  
الذين لهم الحق في الانتخاب . ولما كان الهدف الاسمي الذي يسمى اليه  
« المواطن » الروماني هو الحصول على العضوية في مجلس الشيوخ ،  
فلقد كان هدف التربية هو تمكين الفرد من القدرة على الاقتناع ، اقتناع  
زملائه في مجلس الشيوخ . ومن هنا كانت التربية عند الرومان تهتم  
اهتماما كبيرا بالبلافة والنحو والبيان ، وكان هدفها الاسمي هو تكوين  
ذلك الخطيب الذي يستطيع اقتناع « المواطنين » لينتخبوه ، واقتناع زملائه  
اعضاء مجلس الشيوخ ليحترموه ويرشحوه للمناصب العليا .



### 3 - في القرون الوسطى

— أما في القرون الوسطى ، فلقد كان النظام السائد في أوروبا هو النظام الانقطاعي . وبما انه لم يكن هناك حكم مركزي يتولى الدفاع عن البلد وحدوده وتغوره ، فلقد تولى مهمة الدفاع هذه الاقطاعيون انفسهم . ومن هنا كانت التربية خاضعة في اهدافها ووسائلها لمتطلبات نظام الفروسية ، نظام الدفاع عن الاقطاع ، فكانت التربية تعنى بالناحية الجسمية اكثر من عنايتها بالناحية المعنوية .. نعم كان هناك تعليم ديني تتولى اقيامه به الكنائس والاديرة .. ولكنه لم يكن سوى جزء من النظام العام السائد ، لقد كان تعليما يكرس الخضوع لنفس النظام ، اخضاع الروح لنفس الاهداف التي يخضع من اجلها الجسد .

### 4 - في المجتمع الاسلامي

— أما في الاسلام فلم يكن الامر على هذا الشكل .. لقد كان الاسلام في بدايته ثورة ثقافية واجتماعية ضد الوضع القائم .. ولذلك التح على طلب العلم من المهد الى اللحد ، وجعل تعليم الاولاد وسيلة من وسائل التحرر من الاسر .. واقتر المساواة بالقدر الذي كانت تسمح به الظروف القائمة يومئذ .. ولكن عندما تطور المجتمع الاسلامي ، عندما نمت فيه الفوارق الطبقية بالقدر الكافي ، وعندما اخذ يحثك بحضوره الفرس والرومان احتكاكا مباشرا ، عنئذ اقتصت التربية بدورها طابعا طبقياً .. واصبحت مخصوصة بالموسرين ، بالنخبة ، بـ « الخاصة » . لم تكن هناك ، في اول الامر مدارس ، بل كان الاب يعين لابنه مؤدياً ، اى استاذاً مريباً .. وهذا ان استطاع افراد « الخاصة » من حكام ووجهاء واغنياء فعله .. فانه لم يكن قط يوسع « العامة » ، عامة الشعب . نعم لقد كان التعليم الديني الاولي من حق الجميع .. وكلها كان ذلك ممكناً .. ولكن « العلم » كان موقوفاً على طبقة « الخاصة » .. ولم تكن النظريات التربوية في الاسلام على غايتها وضاحتها — فنقص آراء العلماء والفقهاء والفلاسفة — لتختلف عما كان موجوداً في الواقع .. لقد كان المبدأ السائد هو « انزال الناس منازلهم » ، سواء تعلق الامر بالكبار او بالصغار او بعلاقة أولئك بهؤلاء .

بعد تقرير هذه الحقيقة نضيف ان هدف التربية الاسلامية في المصور التي كان فيها خط التطور يتجه صعوداً ، هو اعداد الامراد

للحياة الدنيا والآخرة معا . اعمل لعنيك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك ستبوت غدا . أما في العصور اللاحقة جهود الانحطاط ، فلقد كان هدف التربية هو الاعداد فقط ليوم القيامة الذي كان ينتظر بين لحظة وأخرى .. فانتشر التصوف والطرقية وسادت العقلية الخرافية .. انحطاط في الاهداف والمفاهيم والأساليب والطرق يعكس انحطاطا اجتماعيا .. يكرس وضعا معيناً .. وضع الاستغلال الإقطاعي على النمط الإسلامي .

5 - في العصر الحديث :

### الحرية في التربية وفي الاقتصاد معا

— أما في العصر الحديث ، ومع بداية النهضة الأوروبية ، فلقد حدث انقلاب في المفاهيم التربوية يعكس ذلك الانقلاب الذي أحدثته الثورة الصناعية في الحياة العامة . نظريات لوك وروسو وسبنسر كلها مرتبطة بفترة التحول هذه . لقد نادى روسو بالتربية الطبيعية ، بالحرية ، الحرية التي تشجب أي تدخل من جانب المربي .. ولم تكن هذه الآراء في التربية الحرة تختلف عن تطلعات البورجوازية الناشئة وفكرها الليبرالي . وهكذا فالحرية التي نادى بها روسو في ميدان التربية هي نفس الحرية التي نادى بها ريگاردو وآدم سميث وغيرها في الميدان الاقتصادي . كان شعار روسو في التربية هو : دعوا الطفل يتربى وفق الطبيعة .. وكان شعار الاقتصاديين هو : دعوا الاقتصاد يسير وفق « قوانين الطبيعة » : دعاه يسير ، دعاه يعمل .

كانت آراء روسو ولوك وسبنسر في التربية جزء من ايديولوجيا عامة : الايديولوجيا الليبرالية ، التي كانت بدورها جزءا من ثورة عامة اجتماعية وفكرية ضد اوضاع القرون الوسطى ، اوضاع النظام الإقطاعي .. لقد ثارت البورجوازية على الإقطاعية .. وفي هذا الإطار كانت ثورة فولتر على الكنيسة .. وكانت الدعوة الى علمانية الدولة وعلمانية التعليم جزءا من نفس الثورة . ولذلك فعندما ندرس اليوم الآراء التربوية التي نادى بها روسو أو سبنسر أو غيرها من فلاسفة الثورة البورجوازية، الأوروبية ، يجب أن لا نفصل قط عن أطوارها التاريخي الاجتماعي ..

وإذا انتقلنا الآن الى النظريات التربوية في أمريكا ، وفي مقدمتها نظريات جون ديوى ، فلننا سنجدها صادرة من نفس الفلسفة العامة السائدة في المجتمع الأمريكى ، فلسفة النفعية « البرجماتية » . ان الحقيقة في الفلسفة البرجماتية هي ما يفيد ، ما ينفع . ولذلك اتجهت الفلسفة التربوية عند الامريكيين اتجاها نفعيا . والخبرة التي يبنى عليها ديوى نظريته التربوية هي خبرة الحاضر ، الخبرة التي تحقق منفعة في الحاضر وتستوحى من معطيات الحاضر . ان المجتمع الامريكى مجتمع جديد ، لا يجسر وراه تاريخا طويلا متواصلا كالمجتمعات الاوروبية والاسلامية . ولذلك تتجه التربية في أمريكا الى الحاضر اكثر من اتجاهاها الى الماضى . فهي لا تريد ان تلجأ للمستقبل بواسطة الماضى كما في حضارات اخرى . ان منطق التنمية والوضعية الجديدة هما داعمتا الفكر الامريكى . ونظريات التربية الامريكية مؤسسة على هاتين الدعائتين اللتين تعكسان نمطا من الحياة الاجتماعية يقوم على المبادرة الفردية والتنافس وغير ذلك من خصائص النظم الرأسمالى .

\* \* \*

### التربية ليست محافظة دوما

لقد اشرنا قبل الى ان الفكر يسبق الواقع ويعمل على التمجيل بتغييره ، وليس فقط مجرد انعكاس لهذا الواقع . . وعلينا ان نضيف الان ان هذه الخاصية التي يمتاز بها الفكر راجعة الى ما يتمتع به من استقلال نسبي . هذا الاستقلال النسبي للفكر هو الذى يجعل منه قوة تساعد على التقدم او تموق التقدم ، وهو الذى يجعل منه ايضا قوة تستطيع الاستمرار والدفاع عن نفسها حتى بعد زوال الظروف الاجتماعية التي أنتجتها . نريد ان نخلص من هذا الى ان النظريات التربوية ، على الرغم من ارتباطها بالواقع الاجتماعى ارتباطا وثيقا ، فاتها مع ذلك لا تموت كلها بزوال الواقع الذى نبتت منه وارتبطت به ، بل تبقى منها مبادئ عامة يمكن ان تستمر وتبقى سالحة في عصور لاحقة ، ومجتمعات مختلفة ، فهي من هذه الناحية نعتبر عن حقائق عامة يمكن ان تصلح في ظروف مختلفة ، لان طابع العمومية الذى



تتصف به يجعلها قليلة لان تحمل مضامين مختلفة بعض الاختلاف . هذا هو السر في اننا نجد اليوم في نظريات افلاطون وارسطو وروسو وديوى وغيرهم ما يستجيب بكيفية او باخرى لتطلعاتنا ، وما يتوافق نسبيا مع التصورات التي ننشئها لانفسنا عن التربية واهدافها ، التصورات النابعة من واقع مجتمعنا والمتجاوبة بشكل او باخر مع تصورات تابعة من اصول بعيدة عنا بعدا زمنيا ومكانيا .

ولكن علينا في جميع الاحوال ان لا ننسى الظروف التاريخية والاجتماعية ، التي تؤثر النظريات التربوية وفلسفات التربية . وعلينا اكثر من ذلك ان لا ننسى الظروف التاريخية والاجتماعية التي نعيش نحن في ظلها ، حتى يكون فكرنا التربوي وعلتنا التعليمي مسايرين للتطور ، مساعدين على التغيير .

### الصورة التكنولوجية والتربية

لقد احدثنا في الفترات السابقة على الطبع المحافظ للتربية . وهذا صحيح تاريخيا .. صحيح بكيفية عامة اجمالية .. ولكن اذا كان هذا يصدق على فترات الاستقرار فانه لا يصدق بنفس الدرجة على فترات التحول .. ونحن الان في النصف الثاني من القرن العشرين نعيش في فترة تحول .. العالم كله يعيش منعطفات تاريخيا .. وعلينا ان نستحضر في وعينا معطيات هذا التحول .. وبكيفية خاصة في الميدان الذي يهمنا هنا ، ميدان التربية .

ان العالم اليوم يعيش ثورة صناعية جديدة ، هي الثورة الصناعية التكنولوجية . وكما عملت الثورة الصناعية الاولى على تغيير المفاهيم التربوية تعمل الثورة التكنولوجية على احداث انقلاب في اهداف التربية ووسائلها ..

— فمن حيث الهدف ، أصبحت التربية اليوم تتجه الى المستقبل بدل الارتباط بالماضي . هدفها الرئيسي لم يعد المحافظة على الماضي ، بل بناء عالم الغد والاعداد له .

— أما من حيث الوسائل والاساليب ، فلقد أصبح العمل التربوي



عملا علميا تقنيا .. عملا يعتمد ، لا على النظريات الفلسفية العامة  
المجردة ، بل على نتائج العلوم : العلوم الطبيعية (الفيزيولوجيا  
والبيولوجيا ..) والعلوم الانسانية (علم النفس ، علم الاجتماع  
ومروعها المختلفة ..) .

لقد كانت التربية القديمة فزوا للماضى وشحنا للفكر بالمعلومات  
.. اما التربية المعاصرة فهي فزوا للمستقبل ، واستثمار للعقل ، وتجبر  
لطاقات الفكر وتنمية لاستعدادات الفرد .

### الدور الاقتصادى للتربية

ولإبراز هذه الحقيقة لابد أولا من إبراز الدور الاقتصادى للتربية.  
الى عهد قريب كان التقدم الاقتصادى مرهونا بفزوا الطبيعة  
واستثمار مواردها واستغلال خيراتها . أما اليوم فان التقدم التكنولوجى  
يقوم على فزوا العقل واستثمار الفكر .. والدول التى تفزت من  
وضعية التأخر والاتحطاط الى وضعية التقدم بتخطية سلسلة من  
المراحل ، هى تلك التى عملت على تحقيق ثورة فى ميدان التربية والتعليم .  
هناك امثلة بارزة فى التاريخ المعاصر ، هناك التجربة الصينية ،  
والتجربة السوفياتية والتجربة اليابانية . لم يكن اليابان ولا الصين ولا  
روسيا دولا متقدمة فى القرن الماضى ، بل كانت متخلفة حتى عن مستوى  
بعض البلدان التى لا زالت تعيش الآن فى وضعية متخلفة او شبيهة  
بالتخلفة . واذا كانت الثورة التربوية التعليمية فى روسيا والصين  
جزءا من ثورة عامة شاملة ، مما يجعل الحديث عنهما طويلا ومتشعبا،  
فان الثورة التعليمية اليابانية ذات دلالة خاصة بالنسبة لوضعيتنا نحن  
فى المغرب .

### مثال اليابان

- بدأت الثورة التعليمية فى اليابان مع اصلاحات الميجى 1868 .  
وهذه بعض الوقائع التى قد لا تخلو من دلالة بالنسبة اليها :  
لقد تم توحيد التعليم فى اليابان سنة 1872 وأقرت اجباريته سنة  
1886 وعمم التعليم الابتدائى بنسبة 82 ٪ سنة 1900 وتوسعت قاعدة

التعليم الثانوي والعالى بشكل هائل . وأعطيت الاسبقية للتعليم التقنى، وتضاعف عدد البعثات الى الخارج مرات ومرات .. فكانت النتيجة هي اليابان اليوم ، اليابان التي تلتزمو بضائهما الاسواق العالمية بما فيها الاسواق الأوروبية والأمريكية .. نعم لقد كانت هناك ظروف خاصة ، سياسية واجتماعية واقتصادية ، وراء هذه الثورة التعليمية - الصناعية ، ولكن المهم بالنسبة إلنا الآن هو إبراز مدى ما يمكن أن تحققة الثورة في ميدان التعليم ، مدى القفزة الهائلة التي يمكن تحقيقها بواسطة تعميم التعليم وتوسيع نطاقه سواء على المستوى الابتدائى أو الثانوى أو العالى مع اعطاء الاهمية القصوى للتعليم التقنى والمهنى، ان التنمية التي تشهدها الدول المتخلفة لن تتحقق الا بنشر التعليم على نطاق واسع ، التعليم العام والتعليم المتخصص ، تعليم الكبار وتعليم الصغار ، ذكورا واناثا .

### الاقتصاد السيسى البورجوازى والتربية

والواقع أن الدور الاقتصادى للتربية والتعليم قد تم إبرازه منذ فجر النهضة الأوروبية الحديثة ، منذ النورة الصناعية الأولى بالقرن (18) . واذا نحن استفتينا علماء الاقتصاد السيسى البورجوازى فاننا سنجدهم يلحون على أهمية التعليم كاستثمار وطنى ، بل انهم يعتبرونه أجدى وأنفع انواع الاستثمارات . ولربما كان آدم سميث (1723 - 1790) هو أول من نبه إلى المظهر الاقتصادى للتربية والتعليم في كتابه المشهور « ثروة الأمم » . فلقد أبرز بقوة انتاجية التعليم من خلال كون التربية التي يتلقاها الفرد تمكنه من الحصول على انتاج يفوق النفقات التي استلزمها العمل التربوى الذى استثمر فيه . يقول آدم سميث : عندما نريد ان نصنع آلة ما ، فاننا نأمل أن يقوم العمل الذى ستنتجه هذه الآلة بتغطية نفقات صنعها مع تحقيق شيء من الربح . وكذلك الشأن بالنسبة للانسان : فعند ما يقضى الانسان فترة من عمره في التعلم وينفق في ذلك مقدارا من المال ، فانه يأمل بطبيعة الحال أن يؤدي العمل الذى هيأته له التربية الى تغطية نفقات دراسته وتمويض مدتها مع تحقيق الربح أيضا . أن تربية الانسان وتعليمه - من وجهة نظر الاقتصاد السيسى البورجوازى -

لا تختلف عن صنع الآلة : نشر التعليم = تحسين الإنتاج = تحقيق الربح = تحسين الحياة والرفح من مستواها .

لقد أكد ستيوارت ميل (1806 — 1878) في كتابه « مبادئ الاقتصاد السياسي » ، هذه الفكرة نفسها ، فهو يميز بين القيمة الشخصية للإنسان وبين قدراته المكتسبة بالتعليم والتربية ، معتبرا هذه من جملة الموارد الاقتصادية المستثمرة . ولذلك يلح على ضرورة تعليم أبناء الطبقة العاملة تعليما يمكنهم من التفتح العقلي والحكم على الأشياء التي تحيط بهم حكما سليما . ولكنه اذ يلح على ضرورة نشر التعليم في أوساط الطبقة العاملة ، يجمل الثقافة الرفيعة من اختصاص « المقبول المتفوق » .

ويؤكد الفريد مارشال من جهته ، في كتابه « مبادئ الاقتصاد » الصادر عام 1890 ، على الدور الاقتصادي للقدرات البشرية . فهو يقول : « ان القدرات البشرية بوصفها وسائل للإنتاج ، تلعب دورا أكثر أهمية من الدور الذي تلعبه الأشكال الأخرى للرأسمال » . وكلما خفضت هذه القدرات للعمل التربوي كانت أهميتها بالغة .. ومن هنا أبرز أهمية تعليم الأطفال والعمال ، تعليما يمكن من استغلال مواهب الفرد الى أقصى حد ممكن ، « مبدأ التخصص » . « والقيمة الاقتصادية للرجل العبقري الواحد في ميدان الصناعة تكفي لتغطية النفقات التي تصرف على التربية في حينه بلسرها » ذلك لأن « فكرة جديدة يقول بها هذا العبقري تد تدوى الى اختراع يضيف الى اقتصاد البلد قوة انتاجية أكبر من القوة الانتاجية التي يخلقها عمل مآت الآلاف من الرجال » وهكذا « فبما أن أعلى وأثمن رؤوس الأموال هي تلك التي تستثمر في الميدان البشري ، فإن التربية يجب أن تكون استثمرا وطنيا » .

هل نحتاج هنا الي إبراز الدلالات الأيديولوجية لهذه الآراء ؟ لنكتف بالقول أن آراء فلاسفة الاقتصاد السياسي البورجوازي تنظر الى العمل والتربية نظرة وحيدة الجانب ، نظرة من يقوم الأشياء بمقياس المردودية فقط ، بمقياس الاستثمار والاستغلال . انها آراء مستوحاة من النظام الرأسمالي وحاجاته ، وبالتالي فهي ، على الرغم من جوانبها الإيجابية، تعمل في نهاية الأمر على خدمة هذا النظام نفسه .

## ماركس ، والعمل والتربية

لقد أبرز ماركس (1818 - 1888) في « رأس المال » الفرق بين العمل العادي البسيط والعمل الرفيع المعتمد على الخبرة والتكوين . ان العمل الذي يقوم به الرجل الذي تلقى تربية وتعلما هو اكبر قيمة من العمل الذي يقوم به الرجل العادي . ذلك لان النفقات التي استلزمها الاول اكبر من تلك التي استلزمها الثاني . ولذلك كانت اجرة المهندس مثلا اكبر من اجرة العامل العادي .

هذه فكرة معروفة ... ولكن الجديد الذي اتى به ماركس في هذا الميدان ، هو انه نظر الى العمل نظرة جدلية : ان العمل ليس فقط أساس القيمة التي تعطى للأشياء ، بل انه كذلك فعل انساني بالاساس ، فعل تستعمل فيه قدرات الانسان وملكاته ، وبالتالي فانه عندما يغير الانسان الطبيعة بعمله ، فهو يغير في نفس الوقت طبيعته الخاصة . « ان العمل فعل يتم بين الانسان والطبيعة ، يقوم فيه الانسان ازاء الطبيعة بدور قوة طبيعية . فهو يحرك القوى التي يتوفر عليها جسمه ، الساعدان والمساقان ، والرأس واليدان ، لكسب يتمكن من استيعاب المواد (التي يعمل فيها) ليعطيها شكلا ناهما للحياة . وهكذا ففي الوقت الذي يؤثر فيه الانسان على الطبيعة الخارجية ، ويعديلها ، يعدل ايضا طبيعته الخاصة وينسي القدرات التي تكمن فيه ... » وهكذا فالعمل لا يولد الفكر فقط ، بل انه يخلق الانسان نفسه ، كما يخلق المجتمع . ودور التربية هو جعل الانسان يمي علاقاته بالطبيعة ليتحرر من قبضتها ويتمكن من السيطرة عليها . وهذا الوعي نفسه هو الذي سيكشف للانسان عن حقيقة العلاقات الاجتماعية التي تخلقها عملية الانتاج ، عن حقيقة الاشياء التي ينتجها هو . انه وعي العامل بوضعيته بكامل ابعادها ، الوعي الذي سيجعله يتبين الاسس الموضوعية التي تقوم عليها هذه الوضعية ، ويندفع بالتالي الى العمل والنضال من اجل تغيير هذه الاسس ، من اجل تشييد نظام آخر للانتاج ، هو النظام الاشتراكي بالذات . وعندما يتحقق هذا النظام تصبح وظيفة التربية هي تنمية المستوى التقني والثقافي للعامل ، ليصبحوا رجالا فنيين مختصين ، وفي ذات الوقت اناسا يتمتعون بكامل الصفات التي تجعل من الكائن البشري انسانا لا مجرد آلة منتجة .





## « التربية الجديدة » : ما لها وما عليها

التربية في هذا المنظور تتجه الى المستقبل ، الى العمل على تحرير الانسان من كافة انواع الميودية والاستغلال والاستلاب ، الى تنجير طاقاته الخلاقة ، الى انشاء مجتمع تنتفى فيه كافة ضروب الظلم الاجتماعى التى تجد اساسها الموضوعى فى تقسيم المجتمع الى طبقات .

نعم ، ليست هناك لحد الان نظرية اشتراكية فى التربية ، ليس هناك فى الاديبيات الاشتراكية ما يمكن ان يطلق عليه اسم . بدعوى اشتراكية . ولكن هناك تجارب ، هناك تطبيقات ، وهناك محاسنات ونتائج . وهناك ايضا النظرية الاشتراكية العامة ، النظرية التى تستهدف تحرير الفرد وتحرير المجتمع ، والتى تقدم لنا منهجا عمليا يمكن تطبيقه حسب الخصوصيات ، حسب الحاجات ودرجات التطور والفهم .

ان فيما يدعى بـ « التربية الجديدة » اى الاساليب التربوية التى نادى بها ديوى وديكرولى وميتوسورى وغيرهم ، جوانب ايجابية جديرة بكل اعتبار . ولكن مع ذلك يجب ان لا تحسن علينا عيوبها ودلالاتها الايديولوجية . ان التربية الجديدة ، على اختلاف مطلقاتها واتجاهاتها تلح الحاحا كبيرا على ترك الطفل يتعلم بنفسه ، على تجنب اخضاعه لاية سلطة كيفما كانت ، بحيث يقتصر دور الراشد على خلق الشروط الملائمة التى تساعد على ان يكون لنفسه استاذا ومعلما . ان دور الراشد هنا سينحصر فى اعداد الوسائل الملائمة وتوجيه اهتمام الاطفال نحو محاور معينة ، وتوزيعهم الى زمر وجماعات . « ان مهمة التربية ستصبح ، ليس اعداد الطفل ليعيش وضعية الراشد ، بل السماح له ليعيش وضيمته كاملة كطفل » . ان التربية الجديدة تنطلق من مبدأ اساسى ، وهو اعتبار الطفل خيرا بطبعه ، ومن ثمة يجب على المعلم احترام حاجاته وميوله وتركه يحقق هذه الميول ويلبى تلك الحاجات فى أنشطة يختارها بحرية .

كل هذا جميل ومهم وایجابى يجب الاخذ به ولكن علينا ان نتنبه الى ان « الحرية » التى تنادى بها هذه « التربية الجديدة » هى « حرية » مستهددة من « الحرية » التى يمجدها النظام الراسملى ،

حرية المنافسة والمبادرات الفردية . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يمكننا أن نتساءل : هل يمكن تحقيق هذه « التربية الحرة » في نظام اجتماعي غير حر ، نظام خلق بنفسه ، وحسب قوانين تطوره الذاتي ، وسائل عيوية . لقد تحولت الحضارة التكنولوجية في العالم الرأسمالي الى « حضارة قمع » كما شرح ذلك ماركوز بانسهاب ودقة ، حضارة قمع وتوجه « حرية » الانسان ، طفلا كان أو راشدا . إن « حضارة القمع » لن تهد الطفل الا بالوسائل التي تصنعها هي ، لن تهده بمحيط غير محيطها هي .

نعم ، ان بعض دعاة هذه « التربية الجديدة » يلحون على عزل الطفل عن هذا المحيط الاجتماعي الفاسد ، وجعل المدرسة مجتمعا مطلقا على نفسه . ولكن الا تكون النتيجة الحتمية هي توسيع الهوة التي تفصل بين المدرسة والمجتمع ؟

انه تناقض لا يمكن حله في اطار المجتمع الرأسمالي ، مجتمع الاستغلال والقمع . ان ما هو ايجابي في نظريات دعاة « التربية الجديدة » ومنظرها لن يجد المجال الملائم لتطبيقه الا في مجتمع اشتراكي ، وانطلاقا من افاق فكرية اشتراكية .

### الاتجاهات المتباينة في التربية

هناك بعض المتباينين الذين يستوحون آراء فرويد وماركوز ، ويحاولون تشييد نظرية « يسارية » في التربية ، انطلاقا من بعض المفاهيم الماركسية ينتزعمونها من سياقتها ، انتراما تمسكيا . ان هذه الحركة البيداغوجية المتباينة التي قامت في بعض اقطار أوروبا في أعقاب انتفاضات الطلاب والتلاميذ عام 1968 ، ما زالت في مهدها ، وليس من المنتظر ان تؤدي الى نتائج ملموسة ما دامت لا تربط تحرير الفرد بتحرير المجتمع ، ما دامت تولى الاهمية القصوى للجانب البيولوجي والنفسي على حساب الجانب الاجتماعي الاقتصادي السياسي ، ما دامت هي نفسها تلبى الاغراض في صفوف القوات الشمسية المناضلة من أجل تغيير هيكل المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

\* \* \*

وبعد ، فهذه ملاحظات مابرة كانت تدور كلها حول الخلفيات  
الايديولوجية للنظريات التربوية . ولعلكم تتساءلون : اين نحن من كل  
هذا ؟ اية نظريه في التربية تلائم وضعيتنا كبلد متخلف عانى من  
الاستعمار ، ومعانى من مخلفاته ورواسبه ؟

الواقع ان المشكلة بالنسبة اليها هي اصخم واكثر تعقيدا . فنظامنا  
التعليمي الحالي لم يكن نتيجة تطور ذاتي لنظامنا التعليمي القديم ، بل  
هو نظام منقول اليها مع الاستعمار ، نظام غرسه الاستعمار في بلادنا  
كما غرس اقتصاده وادارته ، ليخدم مصالحه ، ليربطه بهذه الإدارة  
وذاك الاقتصاد . هذا الى جانب بقايا من تعليمنا القديم الذي ورثناه  
من فترة الانحاط الطويلة التي عرقتنا حضارتنا . « والنظريات التربوية »  
التي تدور في ذهن معلمينا اطفالنا ، « والاساليب البيداغوجية » التي  
يتلقونها ، كل ذلك عبارة عن خليط قد لا يتبين فيه الباحث اى منطق ولا  
اى اتجاه . ولعل اكثر المعلمين عندنا تقفا وانفتاحا على المستقبل ،  
هم اولئك الذين يستمدون « مثلهم الاعلى » من التربية في الغرب ،  
من حاضره ، او من فترة من فترات ماضيه . وهكذا يعانى الطفل  
عندنا علاوة على ضروب القمع والحرمان الذين يتعرض لهما في الاسرة  
والمجتمع ، يعانى من استلاب معلميه ، بل من نظام تعليمي مستلم  
بأكمله .

هل تريدون نظرية تربوية صالحة لبلد متخلف كبلدنا ؟ لنبحث عنها  
في اطار الممارسة النضالية التي تستهدف التحرير الشامل لمجتمعنا .  
ان تحرير الطفل المغربي لا يمكن ان يتم الا في اطار تحرير المجتمع ككل .

واذن فالنظرية التربوية المطلوبة ستكون جزءا من استراتيجية عامة  
للتحرير والبناء . فاذا هي ادخلت في هذه الاستراتيجية العامة فلا خوف  
عليها ان هي تبنت الاساليب البيداغوجية الجديدة . بل انها ستكون  
حينئذ قادرة على استخدام هذه الاساليب بالشكل الذى يحقق الغايات  
الانسانية التي من اجلها انشئت .

لقد اتضح لنا من خلال هذا العرض ان لكل نظرية تربوية ، ولكل  
طريقة بيداغوجية ، خلفيات ايديولوجية . معنى ذلك ان التربية كمنهجية  
وطريقة لابد ان تكون مستوحاة من ايديولوجيا معينة ، ولا بد ان تكون  
ايضا خادمة لهذه الايديولوجيا . ونحن كبلد متخلف ليس امامنا ، من



أجل الخروج من التخلف ، إلا اختيار واحد : ربط التحرير بالتربية ،  
والتربية بالتحرير ، في إطار ديمقراطي ، واتجاه اشتراكي . أن الاتجاه  
الاشتراكي هو الذي يعطى لاساليب « التربية الجديدة » مضمونها  
وهدفها ، هو الذي يعطى للتربية مملولها التحريري الحق . أن نسي  
« التربية الجديدة » جانبين : جانب أيديولوجي ، وجانب علمي .  
والنظرية التربوية التي نبحث عنها يجب أن تعمل على صب الجانب  
العلمي ذلك ، ضمن رؤية تقديمية ، ضمن أيديولوجيا اشتراكية  
ناجمة من خصوصيتنا ومقومات حضارتنا .

